"بنتِك": هم الأمومة المعاد حكيه

عُرض مؤخرًا، الفيلم الوثائقي "بنتِك" من إخراج سارة الشاذلي، وهو ثاني أفلامها الوثائقية الطويلة، في عرضه العالمي الأول ضمن مسابقة "آفاق السينما العربية" في الدورة السابعة والأربعين من مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، وقد حاز الفيلم على جائزة صلاح أبو سيف، جائزة لجنة التحكيم الخاصة، ضمن المسابقة نفسها في ختام المهرجان.

عبر نبذة الفيلم المقروءة، يمكنك أن تخمّن أنك سترى ضمنه شذرات مما شاهدت سابقًا في فيلم الأم "ماريان خوري"، تحت عنوان "احكي لي"، والذي عُرض أيضًا قبل سنوات ضمن فعاليات مهرجان القاهرة السينمائي الدولي. أتذكر كيف كان الفيلم حميميًا، صادقًا، وكيف تشعّبت حكاياته، واختلطت فيها السير الذاتية لمخرجته "ماريان خوري"، بالسير الغيريّة لعائلتها، بداية من أمّها ومرورًا بأخواتها وعمّتها وليس انتهاء بخالها المخرج العالمي الأشهر "يوسف شاهين".

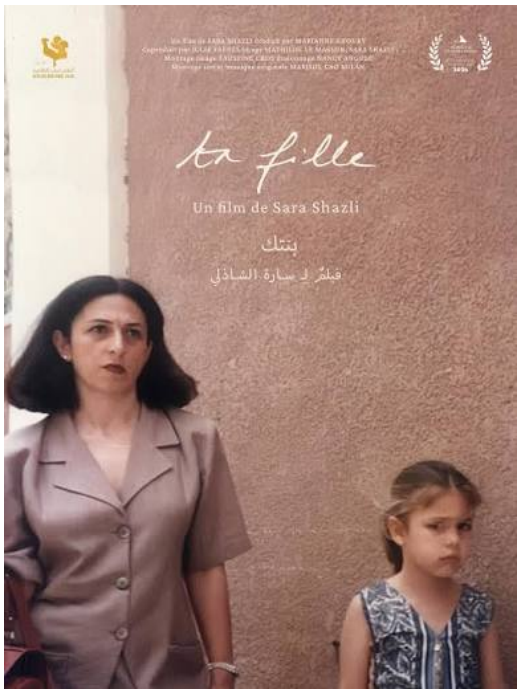

"احكي لي"... السيرة الذاتيّة لأم تتحرر من ذنبها

"بنتِك": هم الأمومة المعاد حكيه

قصدت "ماريان" أن تحكي عن أمّها وقسوتها، والفراغ العاطفي التي خلّفته الأم في نفس أبناءها، بالبعد المادي والجسدي.

فيما تحكي ماريان، تتقاطع حكايها فجأة مع ابنتها "سارة الشاذلي"، التي كان حضورها مهمًا جدًا في الجزء الأخير من فيلم "احكي لي"، حيث تتبين "ماريان" أنها قد أعادت تكرار دور أمّها في حياة ابنتها هي، إن لم يكن بالقسوة في التصرّفات أو بالحزم المزعج، وإنما بالبعد النفسي والجسدي. لاحظ أننا ما نزال نحكي عن "احكي لي" كونه مدخل مهمّ جدًا في حكايتنا عن " بنتِك". تتفاجيء "ماريان" باعتراف ابنتها بأنها لا تشعر لها وجودًا حقيقيًا في حياتها. تشتكي من انشغالها طوال عمرها بالعمل والسفر. تدافع "ماريان" عن نفسها ولا تنكر فعلها أو تقصيرها. يتخلل الفيلم صور قديمة وقصاصات وأفلام "فيديو" للمناسبات السعيدة والحزينة على حد سواء في عيلة "خوري"\ "شاهين".

سأحكي... لكن دعني أذكّرك أولًا

يبدأ فيلم "بنتِك" من حيث انتهى "احكي لي". كأن المخرجة تدرك أننا عارفين بهذا، فلا تنشغل بمقدمة طويلة عن شخوص الفيلم أو أبطاله أو مآساته الأعمق؛ بُعد الأم وغيابها. تمتدّ الحكاية في النصف الأول من الفيلم وكأنه استعادة لفيلم "احكي لي"، بدا أشبه بال "Recap"؛ الجزء القصير المختصر الذي يظهر في بداية كل حلقة جديدة من مسلسل ما، ليذكّرك بما حدث في الحلقات الماضية، لتستطيع متابعة الحلقة الجديدة. هكذا يمتدّ الجزء الأول من الفيلم ولمدّة نصف ساعة. تترك سارة دفّة الحديث لأمّها وتجعلها بطلة الفيلم، تعيد "ماريان" قصّ ظروف انشغالها بالعمل مع "يوسف شاهين" والمهمة التي وضعتها على عاتقها في العناية به وبأعماله. ترافقه ولا تكاد تغيب عنه، فيما تختفي تقريبًا من حياة ابنتها.

على مستوى البناء السردي، تكمن إحدى إشكاليات الفيلم في علاقته بالفيلم السابق؛ فـ"بنتِك" لا يقيم حوارًا مع "احكي لي" بقدر ما يستند إليه ويستعيد مادته، حتى يصبح فهم التجربة الجديدة مشروطًا إلى حد كبير بمعرفة سابقتها. وهذا يطرح سؤالًا عن استقلال العمل الوثائقي وقدرته على تأسيس لغته الخاصة، خصوصًا حين تكون مادته الأساسية قد عُرضت واكتسبت دلالاتها من قبل. فالتكرار هنا لا يتعلق بالوقائع وحدها، بل يمتد إلى آليات الحكي واستخدام الأرشيف، وهو ما يجعل النصف الأول من الفيلم أقرب إلى استكمال لسيرة سبق أن اكتملت سينمائيًا، بدلًا

من أن يكون مدخلًا إلى رؤية جديدة. وربما كان من الممكن استثمار العلاقة بين الفيلمين بصورة أكثر تركيبًا، عبر مساءلة الذاكرة نفسها، وكيف تتغير دلالات الحدث الواحد بتغير موقع صاحبه من التجربة، لا الاكتفاء بإعادة تقديمه.

تجلّي "شاهين" في الحكايتين

تعيد الأم قصّ الحكاية فيما لا يبدو مختلفًا عن فيلمها هي، فالموضوع هو نفسه، وتيمة الحكي التي تعتمد على الجزء الوثائقي من عرض الصور والقصاصات وشرائط "الفيديو" المسجّلة هي نفسها.

حديثًا عن الشرائط المسجّلة لعائلة "خوري"، تبدو المقتطفات هنا أشبه بمادة وثائقية عزيزة ونادرة، أرادت المخرجة أن تستفيد من ندرتها وتعرضها على الجمهور فيما يفيد فيلمها، ويمنحه ثقل أو أهمية بمحتواها. صحيح أنها كانت ممتهة، لكنها لم تضفّر في الحكاية بشكل مناسب كما ظهرت الشرائط والوثائق نفسها في فيلم "أحكي لي". ما يدفع إلينا بسؤال: "هل امتلاك مثل هذا المحتوى النادر المهمّ، الذي يُعيد ذكرى شاهين، نعمة أم نقمة؟". أظنّ أن الإجابة تأتي من مقارنة الفيلمين، حيث ندرك كونها نعمة، فقط إن أحسن من يستخدمها توثيقها أو دمجها في أحداث الفيلم، دون أن تبدو مجرد معرض للصور والفيديوهات، ضمن حكاية أقلّ تأثيرًا.

دوام "نازا"

سارة تظهر أخيرًا

أما الفيلم الحقيقي، فيبدأ من نصفه الثاني، النصف ساعة الأخيرة منه. حيث تظهر "سارة" أخيرًا، وربما كان عليها أن تظهر مبكّرا عن هذا. هنا يظهر الصوت المختلف، هنا تظهر رؤيتها للموقف أو للموضوع. صحيح أنها كانت إحدى بطلات "احكي لي"، وقد أفادت فيه بوجهة نظرها بالفعل، لكن التصوير والإخراج واختيار المشاهد جاء في "احكي لي" من وجهة نظر الأم. اما هنا في "بنتِك"، فسارة حاضرة بشخصها. تظهر فجأة في النصف الثاني من الفيلم، أمام المرآة، ببطن ضخمة. هنا تبدأ الحكاية الجديدة القديمة، هنا تحكي "سارة" عن ابنتها المنتظرة، هنا تروى الأحداث من الجهة

المعاكسة، والجدّة في الخلفية حتى وإن كانت بطلة المشهد. يظهر حسّ "سارة" الحميمي خفيف الظلّ في حكايتها، حيث تتحدث بعيونها إلى الكاميرا، مستغربة ردود فعل أمها في بعض المواقف. تضعها مجددًا في الاختبار حين يتزامن ميعاد ولادتها مع فعاليات مهرجان "كان" بفرنسا. تعد الأم بالحضور وتقسم أن ابنتها هي الأهم وأنها ستحضر لتكون إلى جوارها فور أن تبدأ مراسم الولادة. تمتعض الإبنة ولو بخفّة ظلّ، وتذكّرها أنها تحاول مجددًا أن تجمع بين الاثنين دون خسارة أحدهما، وهو ما ليس عيبًا، لكنه غير معقول. حيث أن فرنسا لا تقع في الشارع الخلفي للمدينة، فإن علمت الأم ببداية مراسم الولادة، فلن تصل على الأقل إلا بعد يوم طويل عريض الساعات. تبدو الحكاية من وجهة نظر "سارة" في جزء الفيلم الثاني ممتعة لطيفة، مختلفة عن كل الغعادات في نصفه الأول، لو أنها استثمرت قدراتها في وقت أبكر من الفيلم لأجادت بكل تأكيد.



عجبتني حكاية الحُضن دي

ثمة أيضًا ما يستحق التوقف عنده في مسألة انتقال الحكاية بين جيلين من النساء؛ فالفيلم، وإن بدا في ظاهره

"بنتِك": هم الأمومة المعاد حكيه

مواجهة بين أم وابنتها، يطرح في عمقه سؤالًا عن انتقال أنماط التربية والحرمان العاطفي عبر الأجيال، وعن مدى قدرة الإنسان على التحرر من ميراث لم يختره. هنا تتجاوز تجربة سارة حدود العتاب الشخصي لأمها، لتصبح محاولة لفهم الكيفية التي تتشكل بها الأمومة تحت وطأة تجارب سابقة، وكيف يمكن للمرأة أن تعيد إنتاج ما عانت منه، حتى وهي تحاول تفاديه.

حيث تصل أخيرًا لحظة التنوير... تأتي المولودة، فتمنح "سارة" بعضًا من خفّة أو رحمة في تقبّل ظروف أمّها، أو ما جبلت عليه في نشأتها. وُلدت الأم لأم لم تورّثها العناية بالأبناء، فحاولت "ماريان" كثيرًا، ونجحت قليلًا. هكذا تفسّر "سارة" الأمر بعد ولادتها، هكذا تنحني للموجة، أو تحاول. هكذا تقرر أن تتقرب من "ماريان"، وتقطع إليها نصف المسافة، ربما يصلان سويًا لنقطة التقاء.

ومن هذه الزاوية، لا تبدو ولادة الطفلة مجرد حدث ختامي أو نقطة تحول عاطفية، وإنما لحظة تتغير فيها زاوية النظر إلى الماضي؛ إذ تصبح سارة نفسها أمام مسؤولية تأسيس علاقة مختلفة مع ابنتها. تعرض "سارة" على أمّها، تجربة تبدو بديهية أو مبتذلة، بأن يتبادلا الأحضان. تستجيب الأم، ويغيب الاثنان على الشاشة في حضن طويل يمتدّ لدقيقة أو اثنين. نرى "سارة" تكتفي قبل انتهاء الدقيقة، لكن الام ما زالت متشبّثة. لا يبدو المشهد مبتذلًا أبدًا كما قد نتوقع من لعبة كهذه، بل تنهيه الأم بطرافة قائلة: "عجبتني حكاية الحُضن دي... نبقى نعملها كتير!".

هكذا... لا يقدم الفيلم إجابات حاسمة عن إمكانية كسر هذه الدائرة، بل يتركها مفتوحة على احتمالاتها، وهو ما يمنح حكايته بعدًا يتجاوز خصوصية عائلة خوري إلى سؤال إنساني أوسع.

ما لم تصوره الكاميرا لا يعرفه الأرشيف

الكاتب: رولا عادل رشوان